

لما قرأت نيتشه

للتأقء الفرئسى : أميل فلعجه

من أعضاء الأكءمفة الفرئسفة

— ٣ —

لم تكن الاءفان من المسائل اللف فصفا ، نئشه ، بالبعء وائمحص اكءر من ففرها . الا أنه مع ذلك قء شملفا بنظره وأصءر ففها حككه .

ساءل عما اذا كان الاءءقء بالءوارق وبالله وبءلوء الروح قوة للانساففة أو ضعفاً : وعما اذا كانت الجماعات البشرففة تصء أو ءمرض بالمئاففز بففات والاءفان . ءرى هل ءقوى الاءفان البشر أم ءضعفهم ؟

لقد أجاب ، نئشه ، بان المئاففز بففات والاءفان ءللل ضعف فى الانساففة . وانفا ءزفء فى ذلك الضعف الذى فءقق بالانساففة منها مقءار ما فزءاء الاءءقء بها . ولفس فى وسع أى انسان أن فئكر أن الاءفان ءولءت من روعة الجهلاء وهولهم بازاء قوى الطففة . اءن فالاءفان نشأت فى الاصل من ضعف الانسان . ففر انها صاءت ففما بعء ءسءة مءوءة . والمراء ان الناس قء افءرضوا وءوء قوى طفة وكرفمة الى جانب القوى العءائفة الهائلة اءفى ءءط بهم . ألسنا نرى من ءولنا وءوء الضعفاء اللف ءرءء وءءلق وءبءل ءاشعة ؟

ان الءفن ءافءة فى الانسان ءلقتها ففه عافقة الضعف أو ءرفزة الضعف . فى الانسان « ءافءة الى الءفن » وهذه ءافءة ءلقت العضو ءافص بها . وما ءامء ءافءة موءوءة فالعضو باقى (العضو ووظفءفه) ففى أصل كل ءفن - من الوءفة ءالفءفة - وفى صلبه من الوءفة الاءفة ، ءقص فى الاءافة أو ضعف فى الاءافة . ولفس الاءافة فى اءءاف الى الففن لانفا ءءء الى عرضفا من ءلقاء نفسها . أما الءفن

فهو في حاجة الى اليقين . الارادة تسفح بطبيعتها الى غايتها ولكن في الدين دافعا خفياً هو الخوف .

ولا يخفى أن ترقى العلوم الطبيعية وتعمم تعليمها قد أضعفا من العقيدة الدينية في أوهام الناس . فان تلك العلوم قد فسرت الظواهر الطبيعية : كالصواعق والعواصف والامطار والرعد ووضحت أسبابها

فالمدين يحسبون أن الحاجة الى الاعتماد ضرب من الحاجة الى العمل : يخطئون . ان الحاجة الى الدين لا تخرج عن الحاجة الى التوكل والركون الى الراحة والهجوم . ان المتدين يحتاج أبداً الى ضد يتوكل عليه . قد ينشأ ، انما تقاس درجة الثقة الكلمة في ديانتنا أو عبارة أصح درجة الضعف فيها . بعد المبادئ التي يأتي الدين ان يرادها مترعة لانه يستخدمها كضد وسند . وكذلك خلق الانسان : تفند أمامه احدى مواد دينه القمرة رباني إلا أن يسلم بحاجة الى الاستمرار في تصديقها واختبارها حقيقة لا مرية فيها . . . هذه الرغبة في التصديق انما هي أيضا رغبة في سند يتوكل عليه . وبالاختصار هي غريزة الضعف في الانسان . الانسان الذي وإن لم يكن هو الخائف للديانات من كل نوع . يعد على الأقل الحافظ الامين لها .

ويحوم حول جميع تلك المبادئ . الوضعية غم كالح من التنازع . وسواء أكان ذلك نتيجة الملل والتعب أو الاعتماد بالقضاء والقدر أو الخية أو الخوف من خية جديدة أو سوء الطبع أو الافراط في الفوضى (الفوضى الداخلية والعجز عن حكم النفس وضبطها في شدتها وجوحها) أو ظواهر عاطفة الضعف من كل نوع . . . فان الدين أنبأ مغلوب والحاجة اليه دائماً ماسة مقدار ما يكون ضعف الارادة في الانسان . . . ومن هنا يمكن استنتاج أن قوة الانتشار التي تمتاز بها الديانتان العظيمتان في العالم : البوذية والمسيحية — انما ترجع في الاصل الى مرض عضال في الارادة .

وبمقدار ما يكون في الانسان من ضعف يكون معتقده فان ظروفاً صحية وما يملكه من القوى العقلية والنشاط السكام تدعوه الى اللواذ بالله والاستعانة به . وكلما شعر المرء بضعفه ازداد إيمانه بالدين .

ولقد يوقى الانسان القوة فينسبها الى الله . كذلك هو مدفوع الى الدين من جانبي

القوة والضعف . قوته الحادثة وضعفه العادى . ومن شأن الحالة الاولى أن تشعده
بالحالة الثانية .

هذا رأى فردريك نيتشة فى أصل الاديان وهو بتلخص فى أن ضعف الارادة
فى الانسان أساس كل دين .

والى تلك الغريزة المزوجة بالخالقة للاديان، يضاف الخالقون أنفسهم . ونعنى بهم
الذين يدبرون الغريزة الدينية . أولئك يقومون بعمل بسيط فى ذاته . ولكنه عظيم
التأثير . إنهم يرسمون نظاما لحياة الشعب ويصلون بينها وبين الله ويحملون حياة الشعب
مقيدة بالقاعدة التى يرسمونها (التعاليم والطقوس) ويقنعونه بأن لحياه العاديه معنى
هو معنى جميل الهى خفى مستحب عند القوة الهائلة التى تدبر العالم وأنه مرغوب
فيه منها حازر لرضاها . وبذلك يصنعون حياة الشعب العاديه بصيغة إلهية .

ولما أقف بنو اسرائيل حياة السلب والنهب . جاءهم رجل فدعاهم الى الله الذى اصطفاهم
دون سائر شعوب الارض وخصهم بحبه ورحمته وأوحى إليهم انه يرضيه أن يرى تلك
الشعوب غنيمة لهم مسئلة لسلطانهم . اذذاك صار لحياة الاسرائيليين - وهم شعب سلب ونهب -
معنى جميل . وصار ذلك المعنى خيرا أدياً ومثلاً أعلى تهون الحياة من أجله . وجلى
أن ذلك الرجل صاحب تلك الدعوة الى الشعب الاسرائيل قد سما بغريزة الدين
وحباهم السعادة والخير .

ثم ما الذى فعله ، بوذا ، ؟ لقد رأى من حوله فئة قليلة مبعثرة فى كل طبقات الشعب
من الصالحين الكسالى . فلم يقنعهم بأكثر من أن الكسل حالة سامية . حالة إلهية . وأن
الرغبة فى المجوع وفى العدم اسمى فكرة للعالم وأنه ليس لله سراها . وبذلك خلق
من الجود ديانة وأنه حين أوتى هذه الفكرة البسيطة كان عبقرياً فلقد أدرك فى الحقيقة انهم
أناس لا يفهمون أنفسهم . ولكى يكون المرء صاحب رسالة دينية يلزم أن يكون ذا ألمعية
سيكولوجية وذكا . خارق فى تفهم طبقة ذوي النفوس المتوسطة التى لم يعترف أفرادها
أنهم من نوع واحد . وأولئك لا يثرلف بينهم غير صاحب الرسالة الدينية . ومن أجل
ذلك كان تأسيس الديانة أشبه بحفلة طويلة يتعارف فيها الناس ،

ومنى أسست الديانة بهذه الطريقة ونظمت اتفقت بالعادة والاقتداء والوراثة

وبرهنت على وجودها وتأيدت بما يصدر عنها من الاضلال الدالة على البسالة الحقيقية ولما كانت القوة تولد غالباً من الضعف ينتهى الامر بالديانة الى السيطرة على الالباب وأن تكون ذات نفوذ أدنى قوى

ولكن هل نحن في حاجة الى القول بأن الاستشهاد في سبيل الدين لا يدل على شيء؟ لعله يدل على أن واحداً من الناس أشد اقتناعاً من غيره بالديانة. على أن الاقتناع ليس دليل الحقيقة. إذن فالشهداء لا يدلون على شيء قط. ولستهم يفتنون ويبهرون بحوادثهم. وهم ضروريون لانتشار الديانة. أنهم الاعمدة الحقيقية التي لا تنزعزع للعبد، فليأمرهم الشهيد على حقيقة الديانة. ولقد كان تعذيب الشهداء مأساة كبرى في التاريخ مأساة اجتنبت الاقنعة وأثرت في النفوس. إذن هل يعد الصليب برهاناً؟

كذلك تمد الديانة سلطانها على جزء من الانسانية تؤيدها الاعمال الرسمية وطقوس الاعتراف والاخلاص والتضحية. ولا يهدمها غير ظهور ديانة أخرى مطابقة لحالة جديدة ولكنها دائماً حالة ضعف في الانسانية أوفى جزء منها.

ولنضرب مثلاً للطريقة التي تقوم بها الاديان: محاولة ديانة الالم الانساني التي لا تخرج عن كونها ضرباً من دين الانسانية. ان تحول محل سائر الديانات الاخرى ليت شعري ما هي تلك الديانة التي تدعو إلى الشفقة والرحمة؟ تقول انها بقية من الديانة المسيحية. وهو أمر واضح. ولا بد من أن يكون كذلك. فانه يجب ان تكون الديانة الجديدة متفقة مع الحالة النفسية العامة. بل لابد من أن تكون تلك الحالة النفسية العامة ذاتها معروفة في صيغة الفكرة الدينية.

على أن هذه الديانة الجديدة — ديانة الالم الانساني — تقى صريح للمسيحية فهي لا تدعو إلى الله بل انها لا تفكر مطلقاً في الله. ومن الممكن أنها لا تؤمن به وتكر فكرة الدولة وفكرة العدالة المعترف بها في ايماننا. وتكر السلطة وكل فكرة تصدق بها المسيحية. هذا إلى أنها تعتمد أيضاً على جانب الضعف الانساني وتسيب به وتصبغه بالصبغة الالهية وتتفق مع حالة الكلال والاعياء التي سادت أوروبا من بعد حقبة الحروب والغارة الالمانية والصلح المسلح. ولقد جعلت من ذلك الكلال والاعياء فضيلة: قتالت اليوم لادم يراق ولا حرب ولو كانت عادلة ان

الرحمة كفيفة يوقف المذابح !، ومعنى ذلك في الواقع ، أيها الملا ! هل أتم جنباً ؟
 حسناً ؟ دعوني اعلمكم بسر الهى يسركم : وهو انكم على حق ،
 تلك هى الطريقة التى يحاول بها الدين الجديد أن يهدم الدين القديم ويوقف
 أحياناً إلى النجاس .

وهناك شيء واحد يستطيع هدم جميع الأديان دون أن يحل محلها دين آخر
 وهو هدم كل ما هو غارق للطبيعة . وإنما تلخص رسالة نبي المستقبل فى أن
 « لا وجود لله » ، وهى أول كلمة يلفظ بها « زاراتوسترا » .

تقول إنه لما تملكنت ، نبتشة ، هذه الفكرة — فكرة نفى الخالق — تهادى
 فيها إلى حد أنه نسي النظرية الحسية انهو هو أن العالم مظلم للجسم . وهذه النظرية
 تؤدي إلى الله . بل انها على الأقل تطوى على شيء الهى . فإذا كان العالم مظلم جمال
 فلا بد من وجود صانع أو تفترض أن العالم نفسه صانع . أى صانع نفسه . وهو ما يزيد
 فى الروحية النظرية .

على أن ، نبتشة ، حين تحمر لفكرة الانكار نفى جمال العالم . ولا بد من
 الاعتراف بأنه لم يكن فى وسعه ان يفعل غير ذلك . نفى نبتشة عن العالم النظام والجمال
 والحكمة فقال انه ليس الكامل ولا بالجيل ولا بالشريف . ولا ينبغي أن يكون شيئاً من
 ذلك . ولا يسعى بناتاً إلى محاكاة الانسان ! . . .

ترك رأي . نبتشة ، المتناقض فى الوجود الذى نفى عنه الذكاء والحياة على اعتبار
 انه أشبه فى نظامه ودقته بالمجموعة العضوية وقال انه يتميز من هذا التشبيه وابدأن
 من أعظم الشرف وصف العالم بالما كينة ، ماشين ، لانه لم يصنع لغاية وانكر أن فى
 الطبيعة قوانين وقال إنه ليس هناك سوى ضرورات الخ — ترك رأيته فى الوجود
 لى نكمل رأيته فى الأديان .

يعتقد فردريك نبتشة ان الأديان لا تتلاشى إلا إذا استطاع الانسان ان يدرك
 او ان يرى شيئاً آخر يختلف عنه . صوره تباين صورة . قال ، كيف يتاح تأويل
 الأشياء مادام الانسان يجعل من كل شيء صورة مماثلة له ؟ ونحن متى وعشنا الأشياء
 لانعرف الا أن نصف أنفسنا . وما دام الانسان لا يرى ولا يعرف غير نفسه بحجة

تفسير الأشياء فيظل خاضعاً للاديان الناشئة عن ضعفه الطبيعي والتي تغذى وتعيش من ضعفه الأدنى .

* * *

لما قيل لنبشأ ان الناس قد مضى عليهم حين طويل من الزمن وهم يؤمنون بخلود الروح الانسانية . وان هذا الايمان ، ارادة في القوة ، وفي طول البقاء . وانه حلم اوليبي يدل على عظمة الانسان ورغبته في أن يكون اشبه بالآلهة (اولبيا ١) أجاب الفيلسوف : قد يكون هذا ممكناً . غير أن لارادة الانسان في القوة اخطأ . ما أيضا . وهذه الارادة التي تزعمونها ليست في الواقع إلا ضعفاً . هي الخوف والارتباك من الموت . ومن ذلك الخوف ينشأ الاعتقاد في خلود الروح أو . الارادة في القوة . كما تصفونها . والانسان مرغم حين يؤمن بخلود الروح على أن يتخذ قبل موته مذهبا أو شيعة دينية ينتمى اليها . لأن سلامته ترتبط بذلك المذهب الذي يختاره . ولقد كانت كراهة ، نبشأ ، للمسيحية سبياً في مقتلسائر الاديان والميتافيزيقيات كان فردريك نيتشه شديد الممت للمسيحية . عدواً لها . وفي اعتقاده أن المسيحية ليست شيئاً آخر سوى ضرب من تسلط الطبقة العامة . وهذا حق في الواقع . ومن أجل ذلك صار عدواً ألباً للمسيحية . ورأى فيها عائقاً دائماً لآرائه ومبادئه . وان المسيحية هي تسلط الطبقة العامة أي ما أسماه نيتشه ازدراءاً ، بالقطيع المنظم .

وفي رأى الفيلسوف الالماني أن تلك الديانة قد مهد السبيل لها ، سقراط . و ، افلاطون ، اللذان هما العقول - برغم آرائهما السياسية - الي عدم النظر للأشياء إلا من الوجهة الخلقية واعتاد أن يرديا حق القوى . حق الاصلاح . وينكراه . وان يجبرا جميع الناس على الخضوع لتقاعده واحدة .

وكذلك ، البرذية ، أو ما تسرب منها قد هيأت السبيل للمسيحية . والبوذية هي أولى الديانات التي قامت على طبقة العامة ودعت الى حظيرتها وديانتها جميع طبقات الناس على السواء . ثم من أدعى البرية من العبرانيين الذين كانت حركتهم شيعة صريحة . حركة قوامها العامة وغرضها ديموقراطية مبنى على المساواة .

وكل هذه التمهيدات التي هيأت السبيل للمسيحية بمقوثة من نبشأ . على أنه كراهته

للمسيحية اشد . والطريقة التي نشأت بها المسيحية معروفة . فان كل حقير ومنحط وعليل وسافل في المجتمع قد دعى الى اذ يكون قديساً لكي تسبل عليه الحلة الآتية . وان يكون عتيراً يائساً أو غريباً . واحترق كل ساعو حتى وفوى وبميل وشريف في المجتمع . وبذلك كانت الحياة وفي انزال .

قال فردريك نيشت : ان المسيحية دين جدير بالعصر القديم الذي هرم . وانها لاخوج للدينيات التي شاعت . وفست . وعلى هذه المذنيات المنحلة وحدها تستقيم ان تبسط نفوذها . في التصور التي غمضت فيها الأعين وسدت الآذان بالطين بحيث لا تصفى إلى صوت العقل والفلسفة ولا تسمع الحكمة الحية الممتسواماً كانت تلك الحكمة تحمل اسم « ابقراط » أو « ايقور » . في تلك العصور يمكن أن يكون رفع الصليب والاذنار بالقيامة كفيين للتأثير في سوق الشعوب المنحلة الى غاية ملائمة لها فلذلك في روما التي صرحت فيها أناشيد « جوفال » . ولنفسك في عبي « فيوس » لكي تدرك معنى رفع الصليب أمام العالم ...

لقد كانت أغلب الشعوب في ذلك الزمن تولد بارواح قد ارتوت حتى المثالة من اللذات وبمشاعر واحساسات قد شاخت واعتراها الهرم . . . ان هذه المسيحية باعتبارها نعمة الزمن القديم صادرة من نافوس متصدع عليل . هذه المسيحية حتى في نظر الذي لا يدرسها الآن إلا من الوجهة التاريخية فقط هي بلم للاند . غير أنها أيضاً سم زعاف للشعوب العنراء الشابة . فان بنورها حين بذرت في نفوس الجرمانين القدماء . أولئك الأبطال ذوي الارواح القوية استحالت عقيدة الخطيئة والهلاك الابدى إلى سم بل إلى اختلاط وفوضى في الشعور وفي الحكم . وكانت النتيجة ان ضعفت قوى تلك الشعوب الجرمانية القوية وانحطت .

وطبيعة المسيحية ان تصبغ الضمير والاذعان والهاجة بصبغة الحية . ومن ثم كان عداؤها للحياة وعداؤها للفن . وللمسيحية في كل زمان ازدراء للحياة ذاتها . ازدراء مزوج بالحقد للحياة تحت لبوس الدين ابتغاء حياة أخرى اصلح أليست العقيدة التي تدعو الى حياة أخرى تقضى على هذه الحياة الحاضرة أو تجعلها مصدر شكوى وتلعنها وتدعو الى مفارقتها والرغبة في الخروج منها أو النزول بها الى حنط الادنى .

وهذا لعمري منشأ احتقار الدنيا والحققد عليها في أصل المسيحية . انها تمتعت بالمرات وترتاع من الجمال واللذة وتدعو الى حالة مستقبلية اخترعتها للحط من شأن الحاضر وزيلة الرغبة في العدم والراحة الدائمة إلى سبت السبوت ! ،

انظر إلى القديس بولس وهو ، باسكال اليهودي ، كما ان باسكال هو ، بولس المسيحي ، . انظر في ذلك الرجل الضعيف المريض الذي كان مصاباً بالصرع بل ربما كان في ماضى حياته من المجرمين . ذلك العبد الاسير للشهوات العنيفة . لقد جعل كل همه ان يمحو الخطيئة فيه بالاتصال المتين بالله اعنى أن يلاشي الحياة في الموت الذي هو حياة أخرى . الحياة الأخرى الوحيدة المرغوب فيها . كان كل مجهود متوجهاً إلى الفناء . الفناء الحاضر الذي هو الشرط اللازم والمعبود للحياة الحقيقية في عرف المسيحية .

والى عدائنا للحياة يضاف عداؤها الدائم للجمال وللفن . ومن الممكن ان يقال ان كل ما هو عدو للحياة عدو للفن . ذلك لان الحياة تركز على المظهر . على الفن والمثل الاعلى وهو حلم تركز على الاعتقاد في مثل وهمي يتجلى فيه الجمال . مثل باهر باعث على القوة . تقول إن المسيحية عدو للفن لانها لاتسلم بشي خارج عن دائرة شريعة الخلق ، مورال ، وترى في الخلق غرضها وغايتها . وهو ما ينفي الفن او يقيد وينزل به الى درك الانحطاط أى يقتله . قال وينشة : ليس هناك شائق يحول دون النظر إلى العالم وتفسيره من ناحية الجمال الفنى (استيتيك) البحت سوى العقيدة المسيحية التى تأتى الا ان تكون محصورة في دائرة الخلق (مورال) والتى تعد الفن بمبادئها المطلقة وشدة تمكها بالله أكذوبة وتحصره في هذه الدائرة أي انها تنكره وتفيه وتقضى عليه وتخصه باللعنة . وبالاختصار لانتم من المسيحية بالفن مطلقاً . تنكر كل قيم الجمال . انها عدمية نهليست ، بالمعنى العميق للكلمة . واذا كان مذهب سترطام يقيد الفن بالاخلاق ويرى ان لا بد لكل عمل انساني من التقيد بالخلق في غرضه إلا انه لا يطله ولا ينفيه . ولكن المسيحية تنفيه وترتاع منه وترى فيه عدو أومتى كان المسيحي موهباً بالذكاء ومتى كان عميقاً يدرك المسيحية ويفهمها مثل . لوتشر ، وكلفن ، و دباسكال ، فانه ينفي الفن . اما اذا كان المسيحي وسطاً في الفهم أو لا يدرك الاثلاثة

أرباع المسيحية فانه ينزل بالفن إلى حد ان يجعله خاضعاً مستذلاً للخلق مثل
«تولستوي» ومتى كان المسيحي مخلصاً أو سطوحياً أو حديث العهد فانه لا يخلو من الغرض
وبالاختصار متى كان لا يدرك شيئاً في المسيحية فانه يحملها مقترنة بالفن كما فعل
«شانون بريان» !

وفي الحقيقة أن المسيحي انسان عاشق للرب . انسان هو ظل الفناء . انظر من
حولك رى المسيحيين من عاشق الفناء . ترى النساء والرجال الذين تملى عليهم جبلتهم
الطبيعية الميل الى الفناء كأنهم مسيحيون بالاستعداد الطبيعي . والقاسوة المسيحيون
اشبه الانواع بالافزام والمخلوقات التي تأوى بطن الأرض .

وتدعى المسيحية أنها اعادت الطبيعة الانسانية صرورة أخرى . وفي الحقيقة انها
افسدها . فلقد خلقت عواطف جديدة ليست من الانسانية في شيء . وأنما حين قضت
على الشهوات احاثها عن غرضها وجعلتها شراً عما هي وأشد فساداً . وتزعم المسيحية
انها قضت على الطمع النقي هو من خير العواطف الانسانية وأقربها إلى الطبيعة لانه
«ارادة في القوة» . هذه الارادة قد استحالحت إلى رغبة في غزو السماء . وقد ألقت
بالانسان في كفاح قلس عنيف ضد نفسه وضد العالم . كذلك احلت المسيحية شهوة
سيئة محل شهوة طيبة . وانما تكون الشهوات سيئة متى نظر اليها بعين سيئة
وشأن النفوس العامية انها ترى في كل ما هو عدو لها مثلاً سيئاً وشراً ويلاً . فالحذار
من ذلك . ان العدو لازم للحياة بل لكل حياة . والمخلوق الذي يفترض انه بلا عدو
انما هو مخلوق تعس حقير قريب من العدم . واخيراً فان المسيحية بقضائها على الحب
واعتبارها ايام خطيئة وعدواً خفياً رهيباً قد أسبغت عليه حلة الشعر وألغته وجعلت
منه لذة يحملون بها وينشدونها برغبة وتهافت مقرون بالانتقاض والتوجس الخلو
المستحب . فهي في الوقت الذي ادعت فيه أنها هدمت الحب قد خلقتة . ولما قالت
انه من عمل الشيطان صار ذلك الشيطان أهم من القديسين بفضل أسرار الكنيسة
وخباياها في المسائل الغرامية . وبفضل الكنيسة صارت مسائل الحب ذات أهمية
حقيقية عند كل الارسط وأصبحت مدار الشعر وموضوعاً أساسياً للتأليف الخيالية .
فالمسيحية قد جدت الطبيعة البشرية ولكن عن طريق افسادها والتزول بها الى درك

الانحطاط وعل هذا الاعتبار بعد نبثشة المسيحية ديناً مفسداً

•••••

ومن بعد الاديان نظر ، نبثشه ، فى العلم وطريقة النظر بالعقل ، راسيونا ليس ،
على اعتبار أنهما من العوائق القوية ضد مذهبه .
والعلم بلدى . الامر ليس سوى العلماء . قوم استحوذت عليهم الكآبة والاستحياء
واختاروا الاحتجاز واتصفوا بقصر النظر . أشد ما يستغرب منهم أنهم لا ينظرون الى
العالم ولا يعرفون الناس ولا يعلمون ماهية الانسان ولا يدرون مبادئ العلم نفسه الذي
يدرسونه ولا أصوله وينابيعه الاساسية ولا غاياته ونتائجه تغلب عليهم الاعتقادات
الباطلة . ويصفون الأوهام بصيغة المذاهب ويهبونها قوة الصنع العلية . صنع المعامل
والمجامع . هم عمال المعرفة الذين لا يدرون شيئاً مثل عمال المصنع الذين لا يعرفون نهاية
العمل الذي يخرجونه . هم الطبقة الوسيطة بين الجمهور وصفوة المثقفين . على أنها لا تتصف
بصفات الجمهور ولا بالصفات التي تنسب الى النخبة المثقفة . وإنما لتضم من الادعاء
أكثر مما يحسب على أية طبقة أخرى من طبقات المجتمع والنوع البشرى — كذلك
تحدث نبثشة عن العلماء كأستاذ وفق الى التخلص من حرفة الاستاذية .

واذا نحن صرفنا النظر عن الفائدة العملية للعلم نفسه وهو ما يجعل له بعض الاهمية
كان خدعة كبرى . ابتدعه ، سقراط ، من قبل المسيح بأربعائة سنة تقريباً . ومن قبل
، سقراط ، لم يكن هناك علم أو على الأقل كان الانسان البارز هو الانسان الذى يعيش
بغريزته (الفطرى) وهو فى أسنى صورته الفنان أو الشاعر . وفى عهده كانت الاولوية
فى عقل الانسان وفى اعتبار الناس إنما هي صورة الانسان النظرى أى الانسان الذى
يريد الدليل على كل شئ . ويطلب المعرفة لكي يقيم ذلك الليل . الانسان الذى يتعلم
ويرتب معلوماته وينتقد ويجعل لما يعلمه برهانا ونظريات وبالاختصار — الانسان
الذى ينظر فى الموجدات بالعقل ، راسيونا ليست ، .

ذلك الانسان — العالم والراسيونا ليست — هو عدوميين أيضا للفن وللحياة . ولقد
عرف ، سقراط ، بأنه عدو للفنون وأراد ، أفلاطون ، بأن يطرد الشعراء من الجمهورية .
قال ، نبثشه ، : إن أعظم ضد للنظرية الطراجيك (أي الفنية نسبة الى فن الطراغوديا

اليونانية) اتماهوا العلم . فان الفن يحجب الى الانسان الحياة تمثله لها في قوالب الجمال
 أما العلم فانه يغير لوننا ويجمعاها بأردة كالتلج - بين بتنا في تحفاتها ومطاميريه الذي
 يقتله العلم . ومن يفكر في النتائج المباشرة لذلك الروح العلوي الذي يسير الى الامام
 دأنا وبلا مهل لا يثبت أن يدرك كيف لاشئ الأسطورة والميثولوجيا وكيف أنه بذلك
 الهدم انزع الشعر من موطنه الغنيبي الاسمي ، إيديال ، وجمله ضالا كالشريد الذي
 لا مأوى له .

وفي الحقيقة أن سقراط صور ذلك الانسان النظري بمذهبه الذي لا يخلو من عمق
 رغم أنه لا يتعدى الفكر المبدئي . على أنه مذهب خطأ بصفة جوهرية . يقول بان
 المعرفة أساس الخلق على اعتبار أن الانسان الذي لا يفعل الخير هو الانسان الذي لا يعلم
 الخير ولا يدره . وأن المرء متى عرف الخير فانه لابد فاعله .

وهذا لعمرى خطأ محض والعكس هو الحق . إن الانسان الذي يدرى الخير
 لا يفعل له لأنه يتبع بمعرفته . وهذا لعمرى بكفى لارضاء كبريائه . ولأن معرفة الخير تجعل
 الانسان يعتقد أنه قد فعله وأنه قد أدى واجبه . والخير غريزي وهو في الفعل . ويندر
 أن يوحيه الفكر أو المعرفة . وما زال فعل الخير نتيجة حركة غريزية لاصلة لها بالمعرفة .
 غير أن هذا الرأي أساس مذهب الانسان النظري . قال سقراط للعالم ، تعلوا وفكروا
 وأقيموا النليل . فان المعرفة هي المقدرة . والمقدرة على فعل الخير . وما المعرفة والتفكير
 والبرهان إلا الانسان كاملا . وما بقي إنما يتعلق بالطفل . ، وكان ينبغي أن يقول للناس
 ، اتبعوا غرائزكم فانها صالحة .

واجتهد ونبتشه ، في اقامة الدليل على أن مذهب سقراط ، مصاد للحياة . وعلى
 اعتبار هذا المذهب تكون الحياة شرا ويكون سقراط متشائما شديد التشاوم .

أنشأ سقراط الانسان النظري وجعله من اضداد الانسان الذي يعيش بالغريزة
 والانسان الذي يحجب الحياة الى الآخرين - الفنان - وجعله يعلم وبرهن ويرسم
 النظريات . وكل هذا من ضروب العبث والمحال . فان العلم قد ير على أن يصدر كل
 رنه ولكنه عاجز عن أداء غايته . وما الذي يحضر عليه العلم ؟ المعرفة . معرفة الطريقة
 التي يتاح لكل ماهو في الانسان أن يدرك بها ما ليس في الانسان . إذن فهي ليست

طريقاً للمعرفة وإنما هي وسيلة نعرف بها أنفسنا . ونختبر ملكاتنا في حالة استعمالها .
هي ملاحظة كيف نرى وكيف نشعر ونفكر ونقيس وكيف نقيم الدليل . ونحن الى
لآن لم نتجاوز هذه الدائرة . لم نخرج عن دائرة البحث في أنفسنا ونعرف كل ما هو
منا وفيها .

على أنا حين نختبر ملكاتنا نصفها حتى لكأننا نضعها في أميق !

ولكن ماهي النتيجة التي وصلنا اليها بعد اختبار ملكاتنا وتصنيفها الى هذا الحد؟
عرفنا مقدرة تلك الملكات في حالة استعمالها والمبالغة في تهذيبها وحدود ادراكها للعالم .
على أن معرفتنا بالعالم لم تزد . ولم تتجاوز في دائرة المعرفة حدود أنفسنا . ولقد وسعنا
مذهبنا . أنا . دون أن تتعدى دائرته . وأنا لانزال حين نطلب المعرفة لانخرج عن
حدود البحث في الانسان أى في أنفسنا . وما يقى . الانسان في حدود المعرفة يمثل الدور
نفسه في هذه الكو ميديا بعينها . لا يستطيع أن يتأمل الاشياء إلا بالعين ذاتها تلك التي أوتيا
وألفها . ثم ما الذي انتهت الانسانية الى معرفته بعد تلك الآلاف من القرون ؟ عرفت
أعضائها . ومن الممكن أن يكون معنى ذلك العجز عن المعرفة .

إن الانسان لا يريد أن يخرج عن حدود ذاته ، في تعرف الاشياء ولا يريد أن

يعرف ما ليس منه

إن العلم يريد أن يعرف العالم ويفسره ويجه علما حقيقيا أي كاملا ومنطقيا أو
بالحرى يريد أن ينتهي من تفسير اللانهاية في الواقع . إن العلم عاجز عن أداء هذه المهمة .
أنا حين نأخذ شيئا من اللانهاية لتوضيحه ندل على عجزنا لان كل جزء من اللانهاية إنما ينسب
الى ما لا يقبل التفسير قبل أن يتم توضيح كل شيء . إذن تكون تفسيرات العلم سطحية
الى حد أنها تشبه أن تكون غير تفسير . وأن كل معارف العلم ليست من المعرفة في شيء .

العلم لعب جدى وفور ومشرف . ولكنه لا يكفى لأعطاء الاولوية في الانسانية
الى الذين يلعبون وأن يعدد اليهم مهمة الارشاد في الجماعات البشرية . إن في ذلك لحرأ
كبيراً . ولقد يشبه المشتغلون بالعلم أولئك الذين يسرعون في حفر بئر عمودية في
الارض فيلاحظ أحدهم أنه اذا قضى العمر كله في الحفر لا يستطيع أن يبلغ من العمق
إلا جزءاً بسيطاً وأن عمله لا يثبت أن يكون في آخر الأمر مضحكاً بعمل جاره .

يدرس العالم والمفكر النظرى ومن ينظر فى الوجود بالعقل إنما هو انسان معط
هو نبي انسان . وأنت اذا كنت قد قرأت د دوست ، ومهمت ذلك السحر البديع
فأنت مدرك لبلائك أنه قضاء على ثلاثة أشياء فى الانسان النظرى . فإن دوست قبل كل
شئ . هو الانسان الحديث . الانسان الذى يعبر فيه على أغرفى سبر عصر سقراط
نعمرى هو الانسان المواجه بالمعرفة والثقافة . ولقد أدرك ما فيها من غرور فقام بتجربة
فى حياة العاطفة ولكنه لم يوفق فى كل التوفيق . وهو بعد أن استغرق فى تأمل العصور
الإغريقية القديمة انتهى به الامر الى حياة العمل . الى الحياة الفعالة الخالقة وإن كانت بعيدة عن
البرهان وعن الانشاد العاطفى .

والمراد من ذلك أن مجاح دوست . ينحصر فى الصعود من القرن التاسع
عشر الى عصر النهضة ومن عصر النهضة الى اليونان التى سفت عهد سقراط . وهو
ما يفضى اليه كل ترقى حقيقى . وإنما الحياة العلمية حياة النظر بالعقل هى الانحطاط .
ولا يستدل من سيطرة العلم الا على أن القرن التاسع عشر قد اتخذ عن سلطان
المثل الاعلى .

لقد تكون للعلم ميزة أنه يحمضنا على حب الاطلاع . ولكن حب الاطلاع آخر
الشهوات . ومن يولد بهذه الشهوة إنما يولد شيخاً . لان الشباب لا يطلب غير
الحياة والعمل . والعصر العلى هو العصر الأخير للانسانية .



وليس ثمة وهم أشد من رأى الشائع فى عصرنا والقائل باقتران الحضارة بالعلم
هذه لغوى فكرة كل انسان يعتقد أنه يدرك ويفكر فى فكرة الخاصة والعامة .
يعتقدون أن الانسان المتمدين هو الانسان المثقف وهو خطأ مبين . فان الصانع
أو الفنان الذى لا يدرك شيئاً مطلقاً أو رجل العمل الذى يدرك بعض البراية ويعلم
الشئ القليل هو انسان مهذب ومتمدن أكثر من العالم . قال نيتشه ولقد وقع عالمنا
الحديث فى شبكة الثقافة الكسندرية . وهى الثقافة التى تعد الانسان النظرى مثلاً الاعلى
الانسان النظرى المسلح بالقوى وسائل المعرفة . والذي يعمل لخدمة العلم ويرى

في سقراط القدوة . هذا مثل الاعلى هو المبدأ والغاية جميع طرائقها الخاصة بالتربية . ومغروض على كل نوع آخر للحياة (الفن وحياة العمل والصناعة) أن يسكنها من أجل وجوده وأن يترقى على اعتبار أنه عمل منسأهل فيه لا كغاية . وغرض جوهرى من أغراض الحياة . ومن الميل النفسية المروعة ان الانسان المهذب لا يعترف به الا في ثوب الانسان المتعلم . وحتى فتنا الشعرى قد تشأ في بادئ الامر من محاكاة الامثلة المليدة فالأغرضى الاصيل يرى مثل « فيست » لأول وهلة غير مفهوم

وليس العلم هو الوسيلة الوحيدة للنتاج والاثمار . فان للانفعال أثماراً ايضاً كما قال « جوتة » . ولعل العلم أدى وسيلة للنتاج . وانه يعوق وسائله السامية ويوقف حائلها دونها . انه عقيم يعوق الناس عن الاتجاه الى النبايع القباضة . ومن عبويه أنه يجعل العالم بارداً كالثلج . ويخففه . دون أن يؤدى غرضه المزعوم وهو تفسير لغزاه وجعله (العالم) مفهوماً .

وهل للعلم تلك الميزة القلينة وهي انه هلام الدين ! وهل العلم والدين حفاظدان ! ان العلم مبنى على عقيدة أشبه شي بالدين أو الدين نفسه . وهو دليل على أن الانسان في احتياجه الى ديانة أى الى تصديق تصوفى وأن يقوى ويعزز في فكر الانسان ذلك الميل الى التصديق وتلك الحاجة الخارجة عن العقل والتربية الى الطغولة ويريد بها الحاجة إلى اليقين التصوفى .

والحاجة إلى الدين التي اكتسبت في عصرنا الصبغة العلمية والوضعية انما تفسرها الرغبة القوية في الحصول على شيء ثابت ممكن . الرغبة في الحصول على عضد . وهو ما تمليه على الانسان غريزة الضعف التي ما زالت الحافظ الامين للاديان والمبائين بقيات . فالثمة في العلم انما هي ضرب من العبادة والتقوى . ولا يصنق الانسان إلا بما يؤيد البرهان انه صحيح . ولكن لكي يعتاد هذا الضرب من التصديق المبني على البرهان لابد له من عقيدة سابقة يوقن بها ان ماهو مؤيد بالبرهان خير مما لا برهان عليه . اخذ فاعلم قائم على عقيدة أشبه بالدين .

قد نقولون إن هذا ليس ديناً وانما هو مجرد الرغبة الطبيعية المشروعة في اتقاء

الحديعة والغش . فليكن ذلك . ولكن تلك الرغبة في اتقاء الحديعة تفرض مبدأ آخر هو أن تجنب الحديعة والحذر منها خير من الوقوع فيها . هذه الرغبة في الحق ليست شيئاً آخر سوى أنها دين .

فالعالم الذى يدعى أنه حرر الانسان والذى ينبغي ان يحرره انما يحوجه الى العبودية . بل انه يحمل تلك العبودية لازمة . واذا كانت الحضارة العلمية قد وصلت شيئاً فشيئاً الى فكرة المساواة بين جميع الناس فان الحضارة لاستغنى عن شعب من العبيد يقوم بالعمل فى مناجها وسككها الحديدية ومشاآتها ومصانعها وهذا لعمري تناقض بل هو خطر قد يردي فى يوم قريب بحضارتنا تحت التأثير المزدوج للضرورات العملية والنظريات وكلاهما يفضى الى خاتمة واحدة حين تتضارب فكرة المساواة بحاجات الحضارة العملية .

وهنا استعان نيتشة برأيه فى أن دوام الحضارة لا يكون الا بوجود طبقة من المستعبدين .

للبحث بقية . عبد الحيد سالم

ظهر الجزء الاول من

اصِلُ الانواع

وَنَشُونَهَا بِالْإِنتِحَابِ الطَّبِيعِيِّ وَحَفِظَ الصُّفُوفِ الْغَالِبَةِ فِي السَّيَّاحِ عَلَى الْبَقَاءِ

فاطلبه من دار العصور ومن المكاتب الشهيرة